

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور محمد عبد الرحمن شهبند

قضية المرأة والرجل

- ٢ -

انواع الزواج (اولاً) الاقتران الموقت: لقد تكلمنا عن العصبية الاجتماعية الاولى بشكل عترة مؤلفة من الشيخ الزعيم الذي يقودها ومن اهله وذويه من النساء والرجال واونحنا سلطته على النساء واستقلاله بهن دون هؤلاء الرجال الذين كانوا خاضعين له خضوعاً اعمى نظراً للرغبة المزروعة في قلوبهم منه منذ الصغر . بيد اننا نعتقد ان هناك وحدة لاجتماعية امبق من هذه العترة غالباً وهي اساسها وهذه الوحدة هي نوع من الزواج الابتدائي يدعى «الاقتران الموقت» وهو كما يلوح لنا اقدم وحدة لاجتماعية وخلصته كما هو مطبق الى يومنا هذا عند (المنكوبين) من سكان جزائر (اندامن) في المحيط الهندي ان الرجل يعلق بالمرأة فيقترب بها لكن مدة اقامته معها لا تتجاوز سن فطام المولود الذي تلده ومن ثم يتركها وشأنها ليقترب بغيرها . وقد لاحظ السباح شيئاً شبيهاً بهذا الازدواج ولكن الى اجل اطول عند الاستراليين الاصليين وعند الهنود البرازيليين وفي شمال (جرينلند)

وبديهي ان هذا النوع من الاقتران هو اقرب شيء الى ازدواج الحيوانات المنقرمة الكبرى كالاسد مثلاً فالذكر منه يصحب اللبوة في فصل الزراء فلا تكون لغيره ويقبم معها الى ان يستطيع الشبل او الاشبال الاعتماد على النفس

وليس من الصعب ان نتخيل سهولة التدرج من هذا الاقتران الموقت عند البشر الى العترة التي اشار اليها (اتكفنن) فالوالد الموقت يصحح بسبب ما يتمو فيه من العاطفة الزوجية والابوية وينطبع في نفسه من اعتياد الحياة الاجتماعية الموثقة اباً دائماً ثم شيخاً زعيماً في عترة كثيرة الاعضاء . ومتى تمت له هذه الزمامة فضاها انه صار (مُضِرّاً) اي متعدد الزوجات وذلك لما له من حرية التصرف في نساء العترة

(ثانياً) الزواج الجمهوري : هو زواج وصفه الكاتب (كوك) كما وجدته في جزائر (هاواي) لما اكتشفها في سنة ١٧٧٨ وصفاً دقيقاً خلاصته ان يتزوج جوق من الاخوة جوقاً من الاخوات بحيث تكون كل اخت زوجة لكل اخ وكل اخ زوجاً لكل اخت. واسم هذا النوع من الزواج في اصطلاح هاتيك البلاد (بونالواني) وله مثل يطبق حتى اليوم بين القبائل (التودية) النازلة على آكام (نلجيري) في بلاد الهند. وذكر (احمد شاه) في رحلته الى بلاد (التبت) عن بعض الاهلين هناك ان الرجل الواحد منهم واخويه الاثني اذا كان لهم زوجات ثلاث بالاشترار الشيوعي ولم يكن لهم جميعاً ولد يفرحون به فلا يجوز لهم ان يتزوجوا امرأة رابعة للحصول عليه ولكنهم يجوز لهم ان يضيفوا الى مجموعهم زوجاً رابعاً للاسعاف فاذا فشل هذا المشروع الاستيلادي فزوج خامس^(١). و اشار المستر (هوايت) المندوب البريطاني في (مسكتم) من بلاد التبت ايضاً الى هذا الزواج وطريقة انتساب الاولاد فيه الى آبائهم فقال « وفي مثل هذه الحال ينتسب اولاد اكبر الاخوات الزوجات سناً الى اكبر الاخوة الأزواج واولاد التي تليها الى الذي يليه واولاد الثالثة الى الثالث ؛ هذا اذا كانت كل واحدة منهم تحمل وتلد ، واما اذا كان منهن من هي طاهرة واولاد حينئذ يوزعون بالاتفاق »

هذا هو الزواج « البونالواني » او الجمهوري ، ويظن بعض الباحثين انه بقية الزواج الشيوعي المختلط في ازمان ما قبل التاريخ . ولوحظ ان الاوساط التي يطبق فيها لا يتحل رجالها بالشجاعة ولا بالكفاة الحربية. على ان هنالك بعض الحدود للحيلة دون ما يتبادر الى الذهن انه اختلاط طليق كاختلاط المردة والكلاب فالاباحة فيه لا تتجاوز الطائفة التي تمارس الى غيرها من العادات الاخرى المجاورة بل تكون محصورة فيها

سبب نشوء وشكل الاسرة : ثم ان اظهار العلاقة النسوية التخرجية بين العصبية المعترية والزواج الجمهوري ليس متعذراً ولكنه ليس ضرورياً ويستطيع الباحث ان ينتحل الاسباب التي ادت اليه بالطريقة التي تروقه ، ولكن ما لنا ولا نتحال الاسباب ما دمنا نعلم ان شكل الاسرة متوقف في الاكثر على مقدار التكيف المطلوب منها بمتنفس سنة البقاء . وقد يكون هذا الشكل قائماً من اساسه على الحاجة الاقتصادية باوسع معانيها خصوصاً في المجتمع الخالي اذ كان الطعام عزيزاً ووقاية الابدان من صبارة البرد وحمارة اقيظ بواسطة المسكن والملبس ضئيلة . ولم يكن الانسان قد اهتدى بمد كما قال « الموجز في علم الاجتماع » الى استخدام الآلات واستثمار قوة الطبيعة . وكان التنظيم السياسي لا يزال ابتدائياً ؛ بل لو كانت بوادر التنظيم الاجتماعي ظاهرة بوضوح فالسياسة والمولة بالمعنى المتعارف اليوم لم تكن موجودة ، وكان الدين في معظم الاحيان مجموعة خرافات مبعثرة ليس فيها اثر من الاخلاق . لا جرم ان

(1) Four Years in Thibet, by Ahmed Shah, p. 54.

شكل الأسرة في مثل هاتيك الاحوال كان متوقفاً على تكييفها بحسب المقتضيات التي تقتضيها سنة البقاء ومتعلقاً بالاحوال الاقتصادية والمعادات والتقاليد المتوارثة . وهذا كله يعني ان هذا الشكل كان نتيجة القوى الطبيعية العمياء^(١) . وعلاوة على ذلك فلا يعني النشوء ارتقاء منظرها بل كما يحدث في السيول والانهيار تراجع المياه على لجوانب الى الوراء في حين يكون التيار في الوسط مندفعاً الى الامام كذلك النشوء قد يصاحبه تراجع موضعي وان كان التيار العام مندفعاً الى الامام . فلا حاجة بنا والحالة هذه الى التقييد بالتسلسل وجعل التفاضل في اشكال الزواج قائماً على ان الشكل اللاحق هو بالضرورة الشكل الارق

(ثالثاً) النسب^(٢) او ازواج المتعدد الازواج: وهو تنظيم اجتماعي تبنى فيه الأسرة على اساس زوجة واحدة لازواج متعددين. ويظن انه تدرج من الاختلاط الشيعي الطليق حدث من تناقص النساء بسبب السبي والحروب وبقلة الطعام. ولاحظه المباح في كثير من أنحاء الارض بين القبائل التي انتقلت من الهجيرة الى البربرية خصوصاً من كان منها خائر العزيرة او مصاباً بالقتل المدقع . وقد وصفه الذين امسوا بلاد التبت والهند احسن وصف ، وهو على نوعين النوع الهندي ويسمى « نايو » نسبة الى جماعة بهذا الاسم يقيمون على شطوط (مالابار) في جنوب الهند حيث تكون المرأة حرة طليقة لها ان تعقد او اضر الزواج باي رجل كفه لها خارج القبيلة التي تعيش فيها او البطن الذي تنسب اليه ، يعني انه يسوغ لها ان تتقرب بازواج عديدين في وقت واحد من غير ان يكونوا اخوة ، اما الاولاد فيتبعون احوالهم او البطن الذي تنسب اليه امهم وينتقل الارث بطريق المرأة فقط . واما النوع الثاني فهو التبتى والواجب ان يكون الازواج فيه اخوة . وذكر الاستاذ (جدهجر) ان هذا النوع من الازواج معروف عند السابوروجيين من التوزاقي في روسيا ، وانه كان منتشرأ بين الارلنديين والكتيين على التحقيق . ونقل عن البحائة (مكلنان) ان هذا الزواج كان شائعاً كذلك بين جميع الاقوام السامية والحامية وذكر (سترايو) في جغرافيته في الفصل السادس عشر ان سنة تعدد الازواج كانت منتشرة في زمانه في بلاد « المريية السعيدة » وهي بلاد اليمن « فكان جميع الاهل من ذوي القرى مشتركين في املاكهم اشتراكاً شيعياً ، واكبرهم شيئاً ارفعهم مقاماً ، وهم جميعاً يتمتعون بزوجة واحدة فن جاء منهم اولاً حظي اولاً ، والرجل الذي يدخل عليها يترك على الباب العصا التي يحملها كل واحد منهم عادة : الا انها تنضي الليلة مع الرجل الاسن » . ويظن (جلاندر) و (ونكر) انها عتريا في الظروف السبائية على ما يريد ذلك

(1) Outline of Sociology, p. 123.

(٢) في كتاب المختصر لابن سيدة ان الضد هو ان يكون لمرأة خيلان ومنه قول الشاعر

ترهين كسما تضمدني وخالاً وهن يجمع السنان ويحك لي عمد ؟

وقد استلنا الضد هنا بمعنى الزواج المتعدد الازواج

وفي صحيح البخاري انه كان من عادة العرب في الجاهلية ان ينكح عدد من الرجال زوجة واحدة وان هذه الزوجة تعين للولد الذي تلده اياه . وذكر البخاري ايضاً نوعاً من الزواج اطلق عليه اسم « نكاح الاستبضاع » يعني ان يمرض الرجل زوجته على شخص شريف ليستولد من صلبه ولداً شريفاً . لكن (ثيردور فولدكه) المستشرق الألماني المشهور يشك في صحة الاحكام التي يعسرها انتقهاء على عادات الجاهلية ودى في عادة تعدد الأزواج في وسط الجزيرة العربية نوعاً من البغاء لازواجاً مشروعاً^(١)

(رابعاً) الزواج المتعدد الزوجات او « الضير » - الضر في معجم اللغة هو زوج المرأة على ضرة^٢ ، وقد اطلقنا هنا على الزواج المتعدد الزوجات في مقابل الضمد او الزواج المتعدد الأزواج ، واذا كانت ضرة المرأة بالتأنيث هي امرأة زوجها فلم لا يطلق علماء الاجتماع عندما « ضر » الرجل بالتذكير على الزميل الآخر في الزواج المتعدد الأزواج ؟

ومن مادة الضير ان تكون الضرائر فيه اما على مرتبة واحدة او تكون ثمة زوجة كبرى واحدة لها المقام الاول ويتبعها ضرائر اقل منها مقاماً وربما كن من نوع السراري والاماء . ويظن بعض الباحثين ان هذا النوع من الزواج نشأ هو وتعدد الأزواج في آن واحدة لان النساء التي كانت تسرق او تؤسر من القبيلة الواحدة فتتقص عدد الاناث فيها تصبح ضرائر في القبيلة الغالبة بما تحده من الزيادة في اناثها . ويبدل الضر على تغير في الاوضاع الاجتماعية الاولى والانتقال من الشيوعية الطمعية الخالية الى عصر التملك الخاص ونظام التخصص والطبقات الاجتماعية ، فالزوجات كانت تحسب في التقديم كما تحسب اليوم في كثير من الاوساط الابتدائية متاعاً وكسباً . لاجرم انها تباع ببيع السلع فيشترىها ويكثر من اقتنائها اما الاقوياء بأموالهم او الاقوياء بأبدانهم او بسلاحهم وهم الطبقة الجندية

والامة التي تباع اليوم في اسواق النخاسة هي من بقايا هذه النظرية الخالية . والضر منتشر في انحاء الارض وهو مباح عند المسلمين الا في تركيا الحديثة ومطبق من غير ان يكون مشروعاً كما يقول (وسترمارك) في اوربا وأميركا وقد بقي في اليابان باعتباره نوعاً من الزواج المرفق حتى الستين الاخيرة

ومع ان فكرة الزواج في الشرق ولا سيما في العالم الاسلامي قد تغيرت تغيراً كبيراً عما كانت عليه في القرون الوسطى فان حال المرأة في بعض الاوساط العربية تدعو الى الاقتناء والتفكير العميق وتتطلب تعاون الرجال المسؤولين جميعاً . فقد اجمع الرواة على ان الجارية - ولو كانت بيضاء من لب بلاد النفقاس - تباع في اسواق اقمس بقعة ببيع السلع فينزّل الطالب الى السوق ليشتري مقعداً وحلة وخزانة وامرأة ؛ ولا يكون في تقليبه جاريته اقل عنابة منه

(١) The History of Human Marriage, vol III p. 154

في تقليبه حلتها فيخلص هذه المرأة لخصاً مادياً دقيقتاً بوسائط الحواس الحس وقد يعرض عليه الخامس ان يجرب الجارية بضعة ايام كما يعرض عليه ان يجرب المقعد والخراتة ، فاذا وجدها صالحة فيها ونعمت والا اتاها ليجربها رجل آخر بحولا يشعر احد من المسؤولين وغير المسؤولين بمس كرامة احد في هذا العمل الذي يليق بعصر الانسان النيندرتالي

ومع ان الاسرة في الطبقة المختارة في بعض هذا العالم العربي التاسع قد تكون اهلاً للاحتذاء والايام حتى في ارقى الاوساط المدنية الغربية فما لا ريب فيه ايضاً انها قد تكون — في غير ذلك من الطبقات — على غرار العترة الخالية التي جعلها (اتكمنس) اساس نظريته في الزواج وتأليف الاسرة . حدثنا الرواة الصادقون ان كثيراً من كبراء العرب افتخر امامهم بثلاث خصال ينحلي بها (الاولى) انه اعرف الناس بطبائع البدو (الثانية) انه اشغف الناس بالطيب اذ يشرف عليه مسانهة ما لا يقال عن اثني عشر الف جنيه (الثالثة) انه اكثر الناس زوجاً فقد بنى على مائة وست وثلاثين عذراء بكرأ ودخل على الف تيب ا

وبديهي ان مثل هذه الطلاقة في الزواج تسمح المجال لكتاب الترنجة وللمطاعن التي يعو بها الى صميم الاسرة الاسلامية. وانني لا أخشى كثيراً ان تسرب مثل هذه الاخبار الوثيقة الى الاوساط العفية حمل بمحانة مثل (هربرت سبنسر) واستاذاً مثل (رودلف باندر) على اتخاذ حرية الزواج عند البدو شاهداً على ما يدعى « استرخاء في العلاقات الشقية » كما هو الحال عند قوم يدعون (المتوترين) « فهم يتزوجون على غير معرفة ، ويطلقون لاسباب فانية ، وقد يتزوج الرجل منهم اربعين او خمسين مرة »^(١)

ومع ان موضوعاً علياً مثل هذا الموضوع لا شأن له في المجادلات الدينية الا ان كاتبه لا يحجم عن التعرض لهم الشنء التي يلصقها بالاسلام جيش من ادعياء الدين الذين اتخذوا التعصب سلباً لتحقيق مصالحهم المادية الحقيرة بطريق الطعن ، وشأن هؤلاء شأن السفهاء في الاحزاب السياسية ممن دنسوا سمعة لحزبهم بما استعملوه من حجر الكلام والتهمج على عقلاء الرجال وقادة الافكار

وذاصح ان الاصلاح الحقيقي في المجتمع البشري لا يتم الا تدريجاً وان الحكم على المصلح العظيم انما يبنى على مقدار الحدوث الذي يحدثه في المحيط الذي يعيش فيه فلا مفرحتي لأكد المحصور من الاعتراف بأن صاحب الشريعة الاسلامية رفع مستوى المرأة عما كانت عليه . واليك حجت التي يدلي بها في بحكمة التاريخ :

لقد كانت البنت في العصر الذي نشأ فيه توأدا وتدفن في التراب حية للخلاص من طارها والفرار من اطفالها فنزلت في القرآن آية قطعت دابر هذه العادة المنهجية ومسحتها

(١) H. Spencer, Principles of Sociology, vol. I pp. 644 & 680

مصحاً وهذا نصها (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم؛ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على صوت أم يدهسه في التراب، ألا ساء ما يحكمون، للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء، والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم) (١)

وكانت المرأة في العصر الذي عاش فيه تعد متاعاً يورثه الميت لابنائه كما يورثهم الأبسطه والتقدور ومائر انواع الماعون بحيث كان يحق للابن ان يتزوج امرأة ابيه من بعده فزلت الآية « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتاً وماء سيلاً» (٢). وكان انبياء الكتاب المقدس عن سبقوه يستمعون بزواج لا حد له ويباح لهم من التسري ما شاءوا، والذي يزيد في المنكر ان الرجل منهم اذا تسرى كان يحق له — بخلاف الاسلام واعتداده بعصمة الاطفال وبراءتهم — ان يكر الاولاد الذين يولنون من هذا السبل وان يعامل الزوجة معاملة العبد الرقيقة (راجع سفر التكوين الاصحاحين الحادي والعشرين والثمان والعشرين وفيهما كيف صرف ابراهيم هاجر المصرية وابنه منها وكيف ابعده عن اسحق ابنه السراي التي كانت له). وقد نص الكتاب المقدس على ان نبياً عظيماً وهو مضرب الامثال في الحكمة — سليمان الحكيم — كان له سبعائة زوجة وثلاثائة سربة فأين هذا من تعدد الزوجات في الاسلام والحد الموضوع له والشروط المطروحة فيه. فقد نزلت آية تعدد الزوجات في مناسبات خاصة لا تفسر الا بها لان المغازي كانت قد اذنت الرجال ونزكت النساء ايامي والانتقال يتامى مما أدى الى ضيق المعيشة وشعور الرعاء بالعبء الناشئة عن تلك المغازي فنزل النص في الآية الثالثة من سورة النساء «وان خفتم ألا تصطوا في البتلى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعلموا فواحدة او ما ملكت ايمانكم ذلك اذنى ألا تعلموا»

ولم يكن للمرأة في الجاهلية من الحقوق ما يذكر بل انها لم يكن لها الحق في ميراث ابيها وزوجها وقد اعطاها القرآن من الحقوق ما لم تحصل على مثله للمرأة في اوروبا الا في الاخيرة . وكتب الفقه طائفة بحقها في الميراث، وادارة المال، والنظر والوصاية وغير ذلك من الشؤون المهمة، واحسن رد على من زعم من ظنني ابواق التعصب ان الاسلام ينكر على المرأة روحها الآية السابعة والستون من سورة النحل وهي «من عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون». وحسب الاسلام ان يعتبر الزواج عقداً مدنياً بين متعاقدين اثنين يحق للمرأة فيه ان تكون عصمتها يدها ومتى تذكر اتقارء ان من الغايات التي نشدها في معالجة هذه القضايا الاجتماعية الكبرى هي اصلاح الاجتماعي في العالم العربي فهو ولا شك يفتخرنا على الاغاضة في بيان الروح الاسلامية

في هذا الموضوع الخطير وتمشياً مع الحاجة الزمنية ، وهذا ما يحدو بنا إلى الاستشهاد هنا بكتاب قربي معروف لم يكن صديقاً خاصاً للنبي الذي أسس مجد العرب وهذا الكتاب هو (روبرت روبرتس) فقد جاء في أطروحة ما يأتي: « انه ليعجز القلم عن بيان الشور الخطيرة المتنوعة التي تنشأ عن الضرر بما يجلبه على الشقين الذكر والانثى من العواقب الرخيمة . على اننا بعلمتنا مسألة الضرر بين المسلمين طبعاً ان نذكر دائماً ان هنالك فرقاً عظيماً بين اباحة الشيء وبين احداثه واستنائه لاول مرة . وواجب العدل يقضي بان نقول ان النبي قد وضع لهذه العادة حداً بدلاً من ان نقول انه ادخلها بين العرب . فقد كان الضرر السنة المنتشرة بين الشعوب الشرقية قبل ظهوره وكان هذا حال العرب ايضاً وقد وجدها مطبقة تطبيقاً طليقاً من كل قيد منذ الاجيال السحيقة . ولم يكن هو وحده متمتعاً بزوجات عديدة بل جميع اصحابه واتباعه ايضاً . وبناء عليه فاباحته للضرر انما كانت اتباعاً للعادة العربية العامة ، وكذلك وجدنا في هذه العادة سابقة في اليهودية ففي « العهد القديم » امثلة كثيرة عليها موجودة في تاريخ الانبياء والملاك وغيرهم من دون ان تقابل بشيء من غضب الله . وعلاوة على ذلك فنحن نشك هل كان في طائفة ان يمنعنا بما أتانا لو اراد ، ونذكر بهذه المناسبة كلمات (صولون) اذ قال للاغريقين ليست شرأني خير ما استطع ان اضع لكم ولكها خير ما يمكن ان تتقبلوا لاشكم . ومع كل ما كان يستمع به النبي من النفوذ العظيم فعقدتنا انه كان يستحيل عليه ان يبطل شرعة الضرر بين قومه . وقد عمل المستطاع فلئن لم يبطل فقد تمكن من التحديد . وفي نص الآية الثالثة من السورة الرابعة انه لا يجوز للرجل ان يتزوج من النساء اكثر مما في طائفة ان يقول ، وقد روعيت هذه السنة اجمالاً لان الزوجة الواحدة هي القاعدة في الطبقات الفقيرة بل ليس ذلك محصوراً فيها ابداناً»^(١)

وسيل الانقلاب الاجتماعي الاقتصادي المرم الذي طغى على المجتمع لم يقف دون الامم الاسلامية بل قد شملها ايضاً واكتسحها فيما اكتسح ، وقد لحس العرب كما احسن الانرج من قبلهم بضرورة تخفيف الاسرة وضبط المواليد ووضع حد لها ، وهذا كله من تأثير الحاجة الاقتصادية فهي تعمل عملها من غير التفات الى العنصت والتقاليد . وكنت اترأ للكاتب وانا تلميذ في المدرسة اتواغاً من الدفاع الضافي عن عادة الضرر مبنها كلها حاجتنا الى اكثر النسل . اما اليوم فالدفاع صار قاصراً على تبرير ما حدث في الماضي بناء على قلة الناس يومئذ وعوز الآباء الى الابناء ، والمثل الاعلى الذي ينشد المجتمع الحاضر في امتياد الاولاد يتعلق بنوعهم لا بتعدادهم لان الارقام صارت عيشاً على المدينة

(١) The Social Laws of The Quoran, p. 8.

على ان هذه الضرورة الاقتصادية الملحومة لم تمنع الكثيرين من الاغنياء في العالم العربي ان يستفيدوا - او ان يمحسروا - من اباحة الضر فيمارسونه بصورة علنية محملة كما يمارسه زملاؤهم من الاوربيين والاميركيين بصورة سرية محرمة

الزواج المرهم

(خامساً) الزواج المرهم وهو الزواج المقصور على زوجة واحدة وزوج واحد ولا تعرف قيمته الأبتقارنة النتائج المتولدة عنه بالنتائج المتولدة عن أنواع الزواج الأخرى. ويعتبر الزواج من حيث الأساس اشتراكاً حيوياً وتنظيماً اجتماعياً فهو والحالة هذه وحدة مستجدة ذات كيان منفرد تخضع لمستور تنازع البقاء وبقاء الأنثى مثل سائر الوحدات المشتركة. وقد استعرضنا فيما تقدم أنواع الزواج فما هو النوع الذي سيصمد للحوادث وتكتب له الغلبة في هذا الصراع المستفعل؟ سؤال نجيب عنه بقواعد عامة لا سبيل الى جردها. فكل اقتران او اتحاد تكوّن من ورائه قوة جديدة للداخلين فيه من حيث نوع الإنتاج ومقداره ومن حيث البناء وسلايته وعامسكه في المادة والمعنى ومن حيث القواعد الاقتصادية التي يبنى عليها هو الاقتران الذي يكتب له البقاء. ففي العرة الأولى لا سبيل للذكور - ما عدا الشيخ الزعيم - ان يقوموا بوظائفهم الحيوية واشترأكم للجوهري وذلك للطريقة الاستيدادية الحيوانية التي يخضعون لها. وفي الاقتران الموفت على طريقة السباع لا توجد الروابط «العائلية» وان وجدت فهي ابتدائية والى زمن القظام، وفي الزواج المتعدد الأزواج يكون الرجل «الضر» مثل المرأة الضرّة على تنازع دائم مع زملائه فاهيك ان الولد لا يعرف اباه الا تخميناً او اصطلاحاً مما يجعل الروابط بينها ضعيفة

وفي الزواج المتعدد الزوجات تكيد الضرائر بعضهن لبعض ولو على حساب البيت وخراب الزوج وهدم الأسرة، وتحول غيرتهن دون التضافر للطلوب بين الاب وزوجاته وبينهم وبين الاولاد بل بين الاولاد انفسهم لأن ابن الضرّة هو ايضاً «ضرّة» الى درجة بعيدة. وعرفنا الائم من الرجال الذي يراعي شعور اولاده انه لا يتزوج من بعد وفاة والتهم حتى لا يعرضهم لشيء من المنغصات. ولا يقدر مصائب تعدد الزوجات مثل اهل الشرق لانهم عرفوا بالاختيار المؤلم ان البيت الذي تدخل فيه الضرّة تخرج منه السعادة

ولا حاجة بنا بعد هذه التوطئة الى القول ان التوحيد هو الشكل الذي سيحافظ عليه المجتمع، وذلك للزوايا التي يكتبها الداخلون فيه فالمرأة تعرف ان البيت الذي تبليه بحسن

سلوكها وتوفير مصروفها ورفع عماده بما تبث من الأخلاق في نشته هو بيتها وبيت زوجها واولادها من غير منازع

وكذلك التوحد هو اقرب لان تكون الامرة المثلثة منه صغيرة تسمى مع مطالب الزمن، وهو الشكل الفذ بين انواع الزواج من حيث انه نظام مباح عند الشعوب كافة وحينها وجدنا الضر أو الضد أو الزواج الجمهوري أو الاقتران الموقت وجدنا الى جابه الزواج الموحد . وقد يكون هذا الزواج في بعض الاوساط الشكل الوحيد الذي تسمح به العادة أو الشرعة ولذا تقا قيمة الزواج بمقدار العناية التي تصرف على الاولاد وجدنا الزواج الموحد اثن انواع الزواج وذلك لان العناية بالنسل تبلغ فيه اوجها فترى الابوين في عهده يشتركان بلهفة واحدة وعناية متشابهة في خدمة الابناء « وربما امتدت هذه العناية الى ان يبلغ الولد الخامسة والعشرين من عمره فيكون صاحب شهادة طالبة بن من اتقنون قبل ان يحرم من مساعدة ابويه في حين ان الطفل في الاسرة الاولى كان يترك وشأنه من بعد التقاطم »

وقد زالت اسباب كثيرة كانت من العوامل في تثبيت الضر وانتشاره في الارمنة الماضية منها العقائد الظرفية التي كانت تمنع الرجل من امرأته في ايان الحمل والى اجل بعيد بعد الولادة وهي عقائد قائمة على اعتبار المرأة ممسومة بالشياطين متى كانت حاملا ، ومنها ان تزوة الرجل ومكاته أو قوته لم تعد تحسب بعدد زواجه واولاده واخوانهم . خصوصا لان المرأة « بطلت ان تكون حاملا من العيال فقط ، وقد زال العمل اليدوي الى درجة بعيدة فحل محله عمل الحيوانات الناجحة والادوات والآلات . وقد تلطفت شعور الحب وارتقى فاصبح اطول امدأ . ولم يعد العبا والجمال في نظر الرجل المثقف العامل الجذاب الوحيد . ثم ان المدنية تمخضت في اجمال النساءى روحا جديدة . واصبح الرجل اكثر احتراماً لشعور المرأة »

ونضي عن البيان اننا الترمنا في هذا المقال جانب التوحد وقلنا انه هو الزواج الذي ميصد للحوادث وانه هو الشكل النهائي وكل تغيرات تتوقمها في هذا الباب انما تكورق كما قال هربرت سبنر من حيث اكاله وتوسيع نطاقه ^(١) لكن هذا الكلام يجب الا يفهم اعيننا عن التطورات الخطيرة التي جلبتها على الامرة للمدينة الصناعية الحاضرة مما سنعرض له في المقال التالي ولا عن آراء بعض الاعلام ممن قالوا بالضر فقد ظن الدكتور (جستاف له بون) في كتابه « مدينة العرب » ان الشرائع الاوربية ستبيح الضر في المستقبل ^(٢) وقال (تورنوبو) « ليس لنا ان نعتبر الزواج الموحد غاية الغايات في نشوء وضع الزواج وارتقائه » وان كنا زاه مفضلا على سائر انواع الزواج المعروفة حتى اليوم ^(٣) وذهب الاستاذ (فون اهرتفلس) الالمانى المعروف الى ان ادخال سنة تعدد الزوجات ضرورة لحفظ السلالة الآرية

H. Spencer, Principles of Sociology, Vol. I. p. 725 (١)

Letourneau, Sociologie, p. 378 (٢) La Civilization des Arabes p. 424 (٣)

ولا يكون هذا الفصل من قضية الشق كلاً من الوجهة التاريخية اذا نحن لم نختصه بالقطعة الآتية التي نقلها عن الاستاذ (وسترمارك) تنويراً للاذهان وهي : لا بالنظر الى ان الزواج المرحد كان الزواج المشروع الوحيد المنتشر عند الاغريق والرومان فلا يجوز ان يقال ان النصرانية ادخلت هذا الشكل الاجباري من الزواج الى العالم الغربي . وانه وان كان العهد الجديد يفرض ان التوحد هو الزواج الطبيعي او الكلي الا انه لا ينص على تحريم تعدد الزوجات الا عند الاسقف والشلمس (راجع رسالة يوحنا الاول الى تيموثاوس ، الآية الثانية والآية الثانية عشرة من الاصحاح الثالث، وهذا التخصيص بهما حري بالانتقادات) ونحن لا نعرف مجلساً كنسياً في القرون الاول قاوم الضر ، ولم توضع اية عقبة دون ممارسته لدى ملوك البلدان التي كان منتشرأ فيها على عهد الوثنية . ففي منتصف القرن السادس كان (ليباريت) ملك (ارلند) ملكتان اثنتان وسرتان . وكثيراً ما مارس الضر الملوك المروفنجيون . وكان لشارلمان زوجتان اثنتان وعدد عديد من السراري . وبذل احدي شرائعه على ان الضر لم يكن مجهولاً حتى عند القيسيين . ثم ان (فيليب الهسني) و (فردريك وليم) البروسي الثاني كل منهما عقد على زوجتين اثنتين بمرقة رجال الاكليروس اللوثرين . وقد استصوب (لوز) نفسه هذا الزواج الهسني وتكلم عن الضر في احوال متنوعة بالتسامح الكثير ، فقد ذهب الى ان الزواج لم يكن محرماً عند الله ، حتى ان ابراهيم وهو مسيحي كامل كانت له زوجتان . ولا ينكر ان الله اباح مثل هذا الزواج لبعض رجال العهد القديم في احوال خاصة فقط . واذا اراد مسيحي ان يحدو حدوهم فاعليه الا ان يظهر ان هذه الاحوال تطبق عليه . ولكن الضر كان ولا شك منفصلاً على الطلاق (راجع تاريخ حياة مارتن لوز مؤتمه كوستلين ، الجزء الاول والجزء الثاني) وفي سنة ١٦٥٠ وذلك عقب معاهدة (وستغاليا) لما نقص عدد الاهلين كثيراً من جراء حرب الثلاثين سنة اصدر مجلس (الكريستاج) في مدينة (ورميرج) قراراً قال فيه انه من ذلك الحين فصاعداً يسمح لكل رجل ان يتزوج امرأتين . بل ان بعض المذاهب النصرانية ايدت شرعة تعدد الزوجات بحماسة شديدة وصرح جماعة (زوينجلي) المصلح الديني السويسري المشهور المعروفون باسم (انا بابتست) في سنة ١٥٣١ في مدينة (منستر) بأن الرجل الذي يرغب في ان يكون مسيحياً حقيقياً يجب ان يكون له زوجات متعددة . اما طائفة (المورمون) في ولاية (يوتا) من الولايات المتحدة - وهم اتباع السيد المسيح على طريقة القديسين المتأخرين - فقد عدوا الضر وضعاً الهيباً^(١)